وإنك لعلى خلق عظيم

سيرة عظيم الأخلاق (٢٩)

حجة الوداع

ونحن على مشارف النهاية لسيرة المصطفى ﷺ، فها هي سيرته بين يديك في انسجام عجيب أولها آخرها، حلوها مرها، يسرها عسرها، خيم على كل هذا قوله ﷻ: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم: ٤]، فبين نفحات العطر وومضات الإشراق نستكمل سيرة عظيم الأخلاق محمد ﷺ.

فعقب الهزيمة التي منيت بها الروم في تبوك في شمال الجزيرة العربية حيث فروا أمام جحافل الإسلام، وقد مر النبي ﷺ بهذا الجيش الذي رجح بعضهم أن تعداده كان ثلاثين ألفًا ولا طاقة للعرب في قتال جيش بمثل هذا العدد.

وقد ظهر من شجاعتهم وجهادهم ما ظهر، فأقبلت الوفود تترى في العام التاسع من الهجرة إلى المدينة، حتى سمي هذا العام بعام الوفود فزالت غيرة الجاهلية عن آفاق الجزيرة كما تزول بقايا الليل أمام طلائع الشروق، وصحت العقول العليلة فلم تعد تخشى وترجو إلا الله بعد ما ظلت دهورًا تعبد أصنامًا جامدة، وسمع الأذان للصلوات يشق أجواء الفضاء خلال الصحراء التي أحياها الإيمان الجديد، وانطلق القراء شمالًا وجنوبًا يتلون آيات الكتاب، ويقيمون أحكام الله، ويعلمون العرب ما لم يعلموا هم وآباؤهم.

فأذّن الرسول في الناس أنه حاج إلى البيت الحرام، من أجل ذلك أقبل الناس من كل حدب وصوب يريدون أن يأتموا به؛ ليتعلموا الأعمال الصحيحة، فلا يقعوا في رواسب التقاليد للجاهلية البائدة، وكان ذلك في العام العاشر من الهجرة، أراد النبى ﷺ أن يعَلِّمَهم ويعلم الكثير ممن لم يتعلموا منه، وكان النبي ﷺ قد أرسل أبا بكر الصديق رضي الله عنه في العام الذي قبله للحج، فمهد أبو بكر لحج النبي ﷺ.

ويبدو أنه قد ألقي في روعه ﷺ أن مهمته في الأرض توشك أن تنتهي، فقد أدى الأمانة،

وأينعت أرض الجزيرة بغرس التوحيد، وانتشر الإسلام يغزو الأفئدة والقلوب.

فحج النبي ﷺ بهؤلاء، وكان عددهم مائة ألف، وعلمهم مناسكهم، وبيّن لهم سنن حجهم، وفي يوم عرفة ألقى الرسول ﷺ خطبة جامعة في جموع المسلمين الذين احتشدوا حوله في الموقف، فخطب ﷺ قائلًا بهذه التوصيات: **"إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ، وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ، وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضَعُ مِنْ دِمَائِنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ كَانَ مُسْتَرْضِعًا فِي بَنِي سَعْدٍ فَقَتَلَتْهُ هُذَيْلٌ، وَرِبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ رِبًا أَضَعُ رِبَانَا رِبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ، فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللَّهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ، فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ؛ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ كِتَابُ اللَّهِ، وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟ قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ، وَأَدَّيْتَ، وَنَصَحْتَ، فَقَالَ بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ: اللَّهُمَّ اشْهَدِ اللَّهُمَّ اشْهَدْ ثَلَاثَ مَرَّات"**[1].

كان الرسول ﷺ يريد بعد بلاء طويل في إبلاغ الرسالة أن يفرغ في آذان الناس وقلوبهم آخر ما لديه من نصح، كان يشعر أن هذا الركب سينطلق في بيداء الحياة وحده، فهو يصرخ به كما يصرخ الوالد بابنه الذي انطلق به القطار يوصيه ويذكره بما ينفعه، فأوصاهم ببعض الوصايا.

الوصية الأولى (الحج)

عباد الله، كما تلاحظون أن هذه الوصايا جاءت في أثناء حج النبي ﷺ، وكما ترون أن

[1] رواه مسلم رحمه الله في صحيحه (١٢١٨).

النبي ﷺ توّج عمله، وحياته، وجهاده بهذه الحجة، و لم لا؟! وهي من أركان الإسلام وقد فرضه الله كما في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، ويقول ﷺ: "بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ، شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ"[1].

وقد أجمع العلماء أن الحج لا يجب في العمر إلا مرة واحدة، فعن أبي هريرة ﷺ: "خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، قَدْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ، فَحُجُّوا، فقَالَ رَجُلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا، فقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ، لَوَجَبَتْ"[2]، والحج على الفور عباد الله، وكذلك كل الأوامر على الفور، فبمجرد امتلاكك لمصاريفه يجب عليك الحج، ولا تؤخر فتعاجلك المنية.

وكثير من المسلمين قد حرموا أنفسهم من رحمات الله ﷻ، يقول ﷺ: "مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ، فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ؛ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ"[3].

ثانيًا: الربا

والوصية الثانية وهي تحريم الربا يقول ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟

---

[1] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٨)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (١٦).

[2] رواه مسلم رحمه الله في صحيحه (١٣٣٧).

[3] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (١٨١٩)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه بلفظ قريب (١٣٥٠).

ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ ﴾ [البقرة: ٢٧٥ – ٢٨٠].

ويقول ﷺ: "**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ**"[1]، والموبقات: أي المهلكات.

واعلموا عباد الله أن الربا هو الزيادة في أشياء من المال مخصوصة، وهو نوعان: ربا الفضل وربا النسيئة.

وربا النسيئة: هو ربا الجاهلية، وهو أن تعطي رجلًا، أو شركة، أو مصنعًا، أو بنكًا مالًا، وتتفق معه على أن يعطيك نسبة من رأس المال ثابتة سنوية، أو شهرية، أو ربع سنوية، أو يعطيك مبلغًا من المال ثابتا سنويا، أو أن تقرض أحدًا أو تقترض من أحد ثم تدفع أكثر عند الرد.

هذا هو ربا النسيئة، أو إن شئت فقل: ربا الجاهلية.

وربا الفضل، فبيّنه ﷺ عندما قال: "**الذَّهَبُ بِالذَّهَبِ، وَالْفِضَّةُ بِالْفِضَّةِ، وَالْبُرُّ بِالْبُرِّ، وَالشَّعِيرُ بِالشَّعِيرِ، وَالتَّمْرُ بِالتَّمْرِ، وَالْمِلْحُ بِالْمِلْحِ مِثْلًا بِمِثْلٍ سَوَاءً بِسَوَاءٍ يَدًا بِيَدٍ، فَإِذَا اخْتَلَفَتْ هَذِهِ الْأَصْنَافُ، فَبِيعُوا كَيْفَ شِئْتُمْ إِذَا كَانَ يَدًا بِيَدٍ**"[2].

وجاء بلال إلى النبي ﷺ بتمر بَرْنِيٍّ، فقال له النبي ﷺ: "**مِنْ أَيْنَ هَذَا؟ قَالَ بِلَالٌ: كَانَ**

---

[1] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٢٧٦٦)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (٨٩).

[2] رواه مسلم رحمه الله في صحيحه (١٥٨٧).

عِنْدَنَا تَمْرٌ رَدِيٌّ، فَبِعْتُ مِنْهُ صَاعَيْنِ بِصَاعٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: أَوَّهْ أَوَّهْ، عَيْنُ الرِّبَا عَيْنُ الرِّبَا، لَا تَفْعَلْ، وَلَكِنْ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَشْتَرِيَ؛ فَبِعِ التَّمْرَ بِبَيْعٍ آخَرَ، ثُمَّ اشْتَرِهِ"[1]، أي: يبيع التمر الرديء ثم بالنقود يشتري تمرًا جيدًا، حتى الشبهة في الربا نهانا عنها الشرع.

فَعِلَّةُ تحريم ربا النسيئة أن فيه زيادة وتأجيلا، وعلة تحريم ربا الفضل أن التماثل بين السلعتين في الجنس يخلق شبهة عملية ربوية، إذ يلد التمرُ التمرَ كما ولد المالُ المالَ في ربا النسيئة، وكذلك شرط القبض يدًا بيد؛ كي لا يكون التأجيل في بيع المثل بالمثل ولو من غير زيادة فيه شبهة الربا.

وعن ابن مسعود ﷺ قال: **"لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ آكِلَ الرِّبَا، وَمُؤْكِلَهُ، وَكَاتِبَهُ، وَشَاهِدَيْهِ"**[2]، وروي عن النبي ﷺ: **"دِرْهَمٌ رِبًا يَأْكُلُهُ الرَّجُلُ وَهُوَ يَعْلَمُ، أَشَدُّ مِنْ سِتَّةٍ وَثَلَاثِينَ زَنْيَةً"**[3]، وعن ابن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ: **"الرِّبَا ثَلاثَةٌ وَسَبْعُونَ بَابًا، أَيْسَرُهَا مِثْلُ أَنْ يَنْكِحَ الرَّجُلُ أُمَّهُ"**[4].

ثالثا: الوصية بالنساء

فالله هو القائل: ﴿ **وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ** ﴾[النساء: ١٩]، ووضح ﷺ كيف تكون المعاشرة بالمعروف، فقال ﷺ: **"اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ؛ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ؛ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ"**[5]، وفي رواية: **"إِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، لَنْ تَسْتَقِيمَ لَكَ عَلَى طَرِيقَةٍ، فَإِنِ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا؛ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا وَبِهَا عِوَجٌ، وَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهَا؛ كَسَرْتَهَا،**

---

[1] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٢٣١٢)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (١٥٩٤).

[2] رواه مسلم رحمه الله في صحيحه (١٥٩٨).

[3] أخرجه أحمد رحمه الله في مسنده (٢١٩٥٧)، وصححه الألباني رحمه في صحيح الترغيب (١٨٥٥).

[4] أخرجه الحاكم رحمه الله في المستدرك (٢٢٥٩)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٣٥٣٩).

[5] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٣٣٣١)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (١٤٦٨).

وَكَسْرُهَا طَلَاقُهَا"[1]، فالمرأة عباد الله خلقت من ضلع آدم، والضلع فيه عوج، فهن قاصرات في العقول، والدين، والتفكير، فخذ منهن العفو.

وقد يقول قائل: وماذا أفعل وفي امرأتي صفة أو أكثر سيئة؟ يجيب عليك الحبيب ﷺ الذي يدعو إلى إقامة البيوت على الخير: **"لَا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ"**[2]، فإذا أساءت إليك فطالما أحسنت، وكان الصحابة رضي الله عنهم يعلمون ذلك الحق وذلك الواجب، فجاء معاوية رضي الله عنه قال: **"يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا حَقُّ زَوْجَةِ أَحَدِنَا عَلَيْهِ؟ قَالَ: أَنْ تُطْعِمَهَا إِذَا طَعِمْتَ، وَتَكْسُوَهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ أَوِ اكْتَسَبْتَ، وَلَا تَضْرِبْ الْوَجْهَ، وَلَا تُقَبِّحْ، وَلَا تَهْجُرْ إِلَّا فِي الْبَيْتِ"**[3]، قواعد من الحبيب للمحبة، والألفة، والرحمة، والمودة، حتى في وقت الشقاق تجد أن الرحمة تخيم على هذه الوصايا، فإن فعل الرجل هذه الوصايا وقام بها؛ فيجد المكافأة عندما يقول له الرسول ﷺ: **"أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ"**[4]، فالميزان وضعه من لا ينطق عن الهوى: **"خِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ"**.

ثم يوصي الرسول ﷺ النساء مبينًا لهن أن طاعة الزوج أمر واجب، فقد قال ﷺ: **"إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ، فَأَبَتْ، فَبَاتَ غَضْبَانَ عَلَيْهَا؛ لَعَنَتْهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ"**[5].

حتى في حقوق الله غير المفروضة فقد شرع الرحمن أن يأذن الزوج، فقال ﷺ: **"لَا يَحِلُّ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تَصُومَ وَزَوْجُهَا شَاهِدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَلَا تَأْذَنَ فِي بَيْتِهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ"**[6]، هذا في النفل، أما الفرض فتستأذن إذا كان موسعًا.

---

[1] رواه مسلم رحمه الله في صحيحه (١٤٦٨).

[2] رواه مسلم رحمه الله في صحيحه (١٤٦٩).

[3] أخرجه أبي داود رحمه الله في سننه (٢١٤٢)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الترغيب (١٩٢٩).

[4] أخرجه الترمذي رحمه الله في سننه (١١٦٢)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (١٢٣٢).

[5] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٣٢٣٧)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (١٤٣٦).

[6] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٥١٩٥)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (١٠٢٦).

ثم بَيَّن النبي ﷺ حق الرجل حتى تدركه المرأة فتعرف مداه عندما قال ﷺ: **"لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ؛ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا"**[1].

رابعا: أمانة الكلمة

تلحظوها عندما يقول النبي ﷺ للصحابة **"وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟ قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ، وَأَدَّيْتَ، وَنَصَحْتَ، فَقَالَ بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ: اللَّهُمَّ اشْهَدِ اللَّهُمَّ اشْهَدْ ثَلَاثَ مَرَّات"**، فإنه ﷺ يريد أن يستوثق من هذه الشهادة التي سيلقي بها وجه ربه ﷻ، فعلمنا من هذا أنه لا ينبغي على الإنسان أن يكتم علما، وأن يقول ما هو مقتنع به ما دام أنه لم يتجرأ على غيره، وما دام الإنسان يعلم علم اليقين أنه سوف يقف أمام الله سبحانه فيقول له ماذا فعلت؟ وماذا قلت؟ ولِم قلت؟ فقد قال ﷻ: ﴿ **وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ** ﴾[البقرة: ٢٨٣].

نعم أمانة الكلمة عباد الله، فانظروا إلى الرسول ﷺ بعد أن تحرى في كلامه، بل وهو لا ينطق عن الهوى، ومع ذلك يستوثق من المسلمين؛ لأنه يعلم أن كل كلمة ينطقها المرء هو مسؤول عنها، قال تعالى: ﴿ **مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ** ﴾[ق: ١٨].

فكل كلمة تقولها أنت محاسب عنها، كل شهادة تدلي بها فأنت محاسب عنها، فلو قلت لك: ما رأيك في عائلة ما؟ وشهدتَ أنها عائلة كريمة، وأنت تعلم غير ذلك؛ فأنت محاسب، فلا تقل ولا تشهد إلا بالحق، فشهادتك ستُكتب، قال تعالى: ﴿ **سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ** ﴾[الزخرف: ١٩].

خامسا: حرمة الدماء

قال ﷺ: **"إِنَّ دِمَاءَكُمْ، وَأَمْوَالَكُمْ، وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا**

[1] أخرجه الترمذي رحمه الله في سننه (١١٥٩)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الترمذي (١١٥٩).

فِي بَلَدِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا"[1].

إذن الشرع يبين أهمية الحفاظ على الدماء، إن دماء الناس سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين محفوظة مكفولة، وَصّى بها النبي ﷺ في آخر حياته، مع أن هذه الوصايا كانت واضحة في خضم قراءتك للقرآن الكريم وسنة النبي ﷺ.

عباد الله إننا في هذا الوقت وفي خضم هذه الأحداث المتلاحقة السيئة في كثير منها نحبس أنفسنا شفقة على بلادنا، وأولادنا، ونسائنا، وأنفسنا.

يقول تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ ﴾ [الفرقان: ٦٨]، ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٣]، ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ ﴾ [المائدة: ٣٢]، وعلى هذا النهج حذر النبي ﷺ من القتل قائلا: "اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصِنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ"[2]، وقال ﷺ: "لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ"[3]، "وَنَظَرَ ابْنُ عُمَرَ يَوْمًا إِلَى الْبَيْتِ أَوْ إِلَى الْكَعْبَةِ، فَقَالَ: مَا

---

[1] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٤٤٠٦)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (١٦٧٩).

[2] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٦٨٥٧)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (٨٩).

[3] أخرجه الترمذي رحمه الله في صحيحه (١٣٩٥)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الترمذي (١٣٩٥).

أَعْظَمَكِ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكِ، وَالْمُؤْمِنُ أَعْظَمُ حُرْمَةً عِنْدَ اللَّهِ مِنْكِ"[1]، وقال ﷺ: **"أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الدِّمَاءِ"**[2]، وقال ﷺ: **"لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا"**[3]، وقال ابن عمر رضي الله عنه: **"إِنَّ مِنْ وَرَطَاتِ الْأُمُورِ الَّتِي لَا مَخْرَجَ لِمَنْ أَوْقَعَ نَفْسَهُ فِيهَا، سَفْكَ الدَّمِ الْحَرَامِ بِغَيْرِ حِلِّهِ"**[4]، وقال ﷺ: **"كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَهُ إِلَّا مَنْ مَاتَ مُشْرِكًا، أَوْ مُؤْمِنٌ قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا"**[5]، وقال ﷺ: **"يَجِيءُ مُتَعَلِّقًا بِالْقَاتِلِ تَشْخَبُ أَوْدَاجُهُ دَمًا فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، سَلْ هَذَا فِيمَ قَتَلَنِي"**[6].

فكم من مظاهرات منذ ٢٥ يناير إلى الآن! كم من اعتصامات! كم من وقفات! كم من مظاهرات فئوية، أو عمالية، أو نقابية، أو ما إلى ذلك! وكم من قتلى وقعوا! قتل الكثير والكثير من المصريين، ومن أبناء الجيش والشرطة، ومن المسلمين وغير المسلمين، فما الذي عاد علينا من هذا القتل إلا أننا عصينا الله؟!!!

والأمر ليس متوقفا على أن لا تقتل، ولكن أيضا لا تتواجد في مكان يحتمل فيه القتل، ولهذا أقول إيمانا بالله، وتصديقا بكتابه وآياته، واتباعا لسنة نبيه ﷺ، ووفاء بعهده الذي قطعه على الدعاة: إنه لا يجوز الخروج لهذه المظاهرات، أو أي مظاهرات يحتمل فيها إراقة دماء.

أما من الناحية الشرعية، يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾

---

[1] أخرجه الترمذي رحمه الله في سننه (٢٠٣٢). وقال الألباني رحمه الله في صحيح الموارد: حسن صحيح (١٢٤٨).

[2] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٦٨٦٤)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه واللفظ له (١٦٧٨).

[3] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٦٨٦٢).

[4] صحيح البخاري رحمه الله في صحيحه (٦٨٦٣).

[5] أخرجه أبو داود رحمه الله في سننه (٤٢٧٠)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح أبي داود (٤٢٧٠).

[6] أخرجه النسائي رحمه الله في سننه (٣٩٩٩)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح النسائي (٣٩٩٩).

[الرعد: ١١]، ويقول سبحانه: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الروم: ٤١].

أما من الناحية العقلية، فلا بد أن نهدأ، وعلى كل منا أن يصلح نفسه في مكانه وفي عمله.

ثم أقول: أيها الإخوة المسلمون عباد الله، ألسنا الآن في فتن؟ يقول النبي ﷺ: "**بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا، وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا، وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا**"[1].

ولو قلتَ: ماذا أفعل؟ يقول النبي ﷺ: "**مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْصَحَ لِسُلْطَانٍ بِأَمْرٍ؛ فَلَا يُبْدِ لَهُ عَلَانِيَةً، وَلَكِنْ لِيَأْخُذْ بِيَدِهِ فَيَخْلُوَ بِهِ، فَإِنْ قَبِلَ مِنْهُ؛ فَذَاكَ، وَإِلَّا كَانَ قَدْ أَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ لَهُ**"[2]، إذن نصيحة الحاكم لمن يستطيع أن يتكلم معه، ويقول النبي ﷺ: "**سَتَكُونُ فِتَنٌ الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ، وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي، وَمَنْ يُشْرِفْ لَهَا؛ تَسْتَشْرِفْهُ، وَمَنْ وَجَدَ مَلْجَأً أَوْ مَعَاذًا؛ فَلْيَعُذْ بِهِ**"[3].

إذن أيها الإخوة المسلمون عباد الله، أقول لحضراتكم: إن مثل هذه المظاهرات التي تؤدي إلى قتال وما إلى ذلك شيء لا يرضي الله سبحانه وتعالى.

سادسا: الوصية بالقرآن الكريم

ثم في الوصية الأخيرة التي قالها النبي ﷺ: "**وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ كِتَابُ اللَّهِ**"، فكتاب الله هو الحبل المتين والصراط المستقيم، وهو شرعنا ومنهاجنا، أنزله الله لنتلوه ولنعمل به، هذا الكتاب هو شريعتنا الغراء، هذا الكتاب يحافظ عليه ولا يهان.

---

[1] رواه مسلم رحمه الله في صحيحه (١١٨).

[2] أخرجه أحمد رحمه الله في مسنده (١٥٣٣٣)، وصححه الألباني رحمه الله في تخريج كتاب السنة (١٠٩٧).

[3] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٣٦٠١)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (٢٨٨٦).